العذراء التي صارتْ كنيسة

الأب نجيب ابراهيم الفرنسيسكاني

إنّها مريم، أمّ يسوع وأمّ والكنيسة. في البشارة كما في العنصرة، مريم حاضرة ليبدأ الإنجيل، ولتنطلق الكنيسة في رسالتها، حاملة بشرى الخلاص إلى أقاصي الأرض. يرسم لوقا الإنجيليّ صورة مريم هذه في بداية الإنجيل وفي بداية أعمال الرسل، السفرين اللذين وضعهما، فكان الثاني تكملة الأول. مريم في البشارة ومريم في العنصرة هي صورة الكنيسة التي تعطي المسيح لخلاص العالم، من خلال الطاعة لكلام الله وعمل الروح القدس.

قدرة العليّ تظلّلك

أرسل الله الملاك جبرائيل إلى مريم ليبشّرها بأنّها اختيرت لتكون أمّا لابن الله العليّ، الذي سوف يوليه الرب الإله عرش أبيه داود، أي سوف يكون المسيح الملك المنتظر، فيملك ولن يكون لملكه نهاية. يكشف الملاك لمريم عن التدبير الإلهي لحملها العجيب قائلاً:

«إنّ الروح القدس سينزل عليك وقدرة العليّ تظلّلك، لذلك يكون المولود قدّوساً وابن الله العليّ يُدعى» (لوقا ١ : ٣٥).

تبيّن هذه الآية دور الروح القدس في سرّ التجسّد، من خلال تعابير كتابية، لا بدّ للقارئ الرجوع إليها لفهم الآية الإنجيلية. يقول الملاك: «وقدرة العليّ تظلّلك». نجد هذا الفعل في سفر الخروج (٤٠ : ٣٥):

«ثمّ غطّى الغمام خيمة الموعد وملأ مجد الرّبّ المسكن، فلم يستطع موسى أن يدخل خيمة الموعد، لأنّ الغمام كان حالاً عليه ومجد الرّبّ قد ملأ المسكن».

حدث هذا بعدما عمل موسى حسب كلام الرّبّ الذي أمره بنصب المقدس وتقديسه (خروج ٤٠)، أي خيمة الموعد أو المسكن حيث تابوت العهد. الفعل "ظلّل" في الإنجيل ينقل عبارة "سكنت الغيمة" كما في سفر الخروج، والتي كانت ترمز إلى السكنى الإلهية في خيمة الموعد ومن ثمّ في الهيكل. مجد الله يملأ الخيمة، والغيمة رمز حسيّ لهذا الحضور الإلهي.

نجد نفس الفعل في رواية تجليّ المسيح على الجبل أمام الرسل الثلاثة المختارين. طلب بطرس من يسوع أن يصنع ثلاث خيم، واحدة ليسوع وواحدة لموسى وواحدة لإيليّا. الخيم تعني السكنى الإلهية، التي اعتقد بطرس أنّها سوف تتحقق بهذه الطريقة، ولكنّ فِكرَ الله يختلف عن فكر الإنسان. يعقّب الإنجيليّ قائلا: «ولم يكن يدري ما يقول». هذه السكنى تتحقّق بطريقة أخرى، من خلال الطاعة لكلام المسيح وقبول فصحه بالإيمان. يتابع الإنجيليّ روايته قائلا:

«وبينما هو يتكلّم، ظهر غمام ظلّلهم، فلما دخلوا في الغمام خاف التلاميذ. وانطلق صوت من الغمام يقول: «هذا هو ابني الذي اخترته فله اسمعوا» (لوقا ٩: ٣٤-٣٥).

باستعماله نفس الفعل في رواية البشارة، يصبو لوقا للتعبير عن السكنى الإلهية في مريم، لقد أصبحت "تابوت العهد" كما نقول في الطلبات المريمية. صارت مريم الهيكل الجديد حيث يسكن الكلمة المتجسّد، يسوع المسيح. القراءة الكتابية لنصّ البشارة تسمح بهذا التفسير. بأمومتها الإلهية تصبح مريم المكان المميّز للحضور الإلهي. حيث مريم، هناك الله!

لا بدّ أن نذكر هنا كنيسة "سيدتنا مريم تابوت العهد" في بلدة أبو غوش، المعروفة في العهد القديم باسم "قرية يعاريم" (١ صموئيل ٧: ١). إلى هذا المكان وصل تابوت العهد وبقي فيه حتى نقله داود الى أورشليم. يعطي اسم الكنيسة المبنية في البلدة البعد الكنسي لمريم. صارت مريم أم يسوع رمزاً للهيكل الجديد، أي الكنيسة.

مريم أيقونة الكنيسة

هذا ما يمكن أن نتبيّنه من خلال ما يقول لوقا في بداية إنجيله وفي بداية سفر أعمال الرسل. لوقا هو واضع الإنجيل الثالث وسفر أعمال الرسل، الذي يكمل من خلاله سيرة الخلاص التي بدأت مع يسوع وبلغت أقاصي الأرض مع الرسل. هناك الكثير من أوجه الشبه بين الإنجيل وأعمال الرسل، وما يستدعي الانتباه هو التشابه بين البشارة لمريم وبين العنصرة، بين مريم والكنيسة.

يقول القائم من بين الأموات للرسل:

«ولكنّ الروح القدس ينزل عليكم فتنالون قدرة وتكونون لي شهوداً في أورشليم وكلّ اليهودية والسامرة، حتى أقاصي الأرض» (أعمال ١: ٨).

تشكّل هذه الآية البداية للقسم الثاني من مؤلّف لوقا، أي أعمال الرسل. يَعِدُ القائم من بين الأموات بمجيء الروح. وفي بداية الإنجيل يعد جبرائيل بحلول الروح على مريم. أوجه الشبه كثيرة وكأني

بلوقا الإنجيليّ يصبو إلى التنويه عن عمل الروح في بداية زمن يسوع وفي بداية زمن الكنيسة. الوعد المعطى لمريم هو نفسه الوعد المعطى للكنيسة الممّثلة بالرسل: تلد مريم يسوع، يشهد الرسل للقائم من بين الأموات. في البشارة يتجسّد ابن الله وفي العنصرة تولد الكنيسة، جسد المسيح. مريم حاضرة في البشارة وهي حاضرة في العلية مع الرسل، مكان العنصرة. من الجدير بالذكر أنّ لوقا يذكر مريم بلقب "أم يسوع" فقط قُبيل العنصرة في أعمال الرسل (٢ : ١٤)، لأنّ مريم تأخذ دورها في الولادة الأولى، أي التجسد، كما في الولادة الثانية، أي ميلاد الكنيسة في العنصرة، لتنطلق إلى أقاصي الأرض، إلى نهاية الأزمنة.

من المتّفق عليه أنّ أعمال (١ : ٨) هي عنوان كل سفر الأعمال. يقول يسوع للرسل: «تكونون لي شهوداً حتى أقاصي الأرض». وهذا ما سوف يخبر عنه هذا السفر، أي انتشار الإنجيل على يد الرسل حتى مدينة روما، عاصمة الامبراطوية الرومانية، التي كانت تُعتبر "المسكونة" أي العالم.

في هذه البداية نرى مريم حاضرة مع الرسل المجتمعين في العليّة، المواظبين على الصلاة بقلب واحد. يريد لوقا أن يظهر بذلك دور مريم في الكنيسة وفي الرسالة. وهذا ما تؤكّده الكنيسة في تعليمها:

«مريم، بعد صعود ابنها كانت عوناً للكنيسة في نشأتها. وإذ كانت مريم مجتمعةً مع الرسل وبعض النساء، كانت تُرى تستنزل هي أيضاً بصلواتها موهبة الروح الذي كان، في البشارة، قد بسط عليها ظلّه» (تعليم ٩٦٥).

بقوة الروح أصبحت مريم والدة الله، فقد وهبت الإنجيل للعالم والإنجيل هو يسوع المسيح، فصارت بذلك أيقونة الكنيسة. نتأمّل فيها ما هي الكنيسة في سرّها، وفي رحلتها الإيمانية (تعليم الكنيسة ٩٧٢). إنّها التحقيق المثالي للكنيسة.

هذا ما تعلّمه الكنيسة وهذا ما فهمه القدّيسون عبر العصور، فرأوا في مريم مثالاً للتلميذ وللكنيسة وللرسالة. بكلمات تصعد من قلب شغله حبّ لا يوصف لمريم العذراء، تنقل المؤمن إلى جوهر الأمور، يقول القدّيس فرنسيس الأسيزي في التحيّة التي وضعها للطوباوية مريم العذراء:

«السلام عليك، يا سيّدة،

يا ملكة قدّيسة،

يا مريم والدة الله القدّيسة،

أيتها العذراء التي صارت كنيسة ...».